هــذا الانسان

للأستاذ مصطفى صبحى
المدرس بمدرسة الزيتون الأميرية

يقول العلامة هندريك ڤان لون :

” يبدو هذا غير قابل للتصديق ، ولكنه برغم ذلك حق . فلو أن كل إنسان على وجه الأرض يبلغ ست أقدام فى الطول وقدما ونصف قدم فى عرض الصدر وقدما واحدة فى السمك ، وهــذا لعمرى يرفع مقاييس النــاس نوعا عما هى فى الواقع ، ثم جمعنــا كل النوع البشرى ووضعنا كل ذلك الحشد فى صندوق واحد مكعب طول كل ضلع من أضلاعه نصف ميل لاتسع لنا واحتوانا جميعا ! ... نعم ، قد يبدو هذا غير مصدق ولكن ماذا عليك لو أنك أمسكت القلم وحسبت بنفسك هذه الحجوم ؟ .

إنك ستجدنى صادقا لا أغالط .

ونحن لو نقلنا هذا الصندوق الهائل إلى جبل كانيون فى أريزونا ووضعنــاه متزنا على السفح الحجرى المنحدر — خشية أن تتكسر الرقاب — ودفعته يد واحدة مترفقة فإنه ينساب نحو البحر على مشهد من عيون ذلك الشئ السرمدى الذى نسميه الخلود ... وإن هذا الصندوق ليستغرق لحظات فى انحداره نحو المــاء ، وإنه ليئز أزيزا وتتطاير أمامه الصخور البارزة ويقتلع فى طريقه الأشجار ، وما إن يصل إلى أسفل الجبل ويضرب المــاء حتى يدوّى صوته كالرعد القاصف ويعلو رذاذ المــاء إلى السماء ، ثم ينطح صندوقنا جنبات نهر كلورا ويستقر فى أحشائه ويسود السكون ... والعفاء .

وهذه الخلائق التى حشرت كالمردين فى صندوقها المحكم سوف ينسج النسيان عليها خيوطه .

وتبقى قمة كانيون شامخة تتحدى الريح والهواء والشمس والمطر كما فعلت منذ خلقت . وتظل الأرض تدرر دوراتها اللانهائية فى فلكها غير المحدود ... ولن يلحظ فلكيو الكواكب الأخرى — القريبة والبعيدة — شيئا غير عادى .

وبعــد قرن من زماننا لن يبقى من مقبرة البشرية أثر ســوى كومة تغطيهــا الطحالب والأعشاب الخضراء .

وهذا هو كل شيء ...

إنى أتصور جيداً بعض قرائى وقد تبرموا ولم تعجبهم القصة فى قليل أو كثير ، وأربأ بالجنس البشرى العزيز الشأن أن يهوى إلى هـذا القرار السحيق من المهانة وسوء الافتراض .

على أن هناك ، على كل حال ، زاوية أخرى للنظر فى المسألة ؛ زاوية يتبدى منها كيف أن هـذه الخلائق البسيطة وهـذه الاجسام الضئيلة خليقة بالإعجاب قمينة بالفخار حقيقة .

فهذه الحفنة الضعيفة من بنى الانسان ما إن ظهرت فى الوجود حتى حفت وأحاطت بها جحافل من المخلوقات أشد بطشا وأقدر على الجلد وإبقاء الجنس . وبعض منافسى الانسان فى الأجيال المتغلغلة فى القدم كانوا من الضخامة بحيث يبلغون المائة قدم طولا وتزن الواحدة منها ما تقدره الآن بوزن قاطرة حديدية . وكانت لبعضها قواطع وأنياب دونها المناشير . مخلوقات هائلة مصفحة أو مدرعة كفرساننا فى العصور الوسطى ، تقلبت عليها الغير وتطورت إلى أكثر من صورة . وعدا هـذه عاشت على أديم الأرض مخلوقات أخر لم تقع عليها عيون الناس ، تكاثرت فى سرعة زائدة حتى أوشكت أن تسيطر على فيافى الأرض فى عام أو بعض عام لو لم يقف لها بالمرصاد أعداء أشداء قضوا عليها بمثل السرعة التى توالدت بها .

وإذا كان الإنسان لم يستقر إلا فى أحسن البقاع وأحدبها عليه ، والتزم البقاء فى اليابس المتوسط بين الجبال العالية والبحار العميقة فانه فى الواقع لم يقصر باعه عن قاع المحيط ولم يرتد حسيرا عن قمة الجبل لبلوغ غاياته . إنه ولا غرو خلق من مادة استطاعت أن تنمو وتعيش برغم كل ما أحاط بها .

ولو علمت من بحثك فى العقاقير السامة أن أنواعا من الحشرات تلق بنفسها مرحة فى البترول الذى لانستسيغ مذاقه . وأن غيرها يكيف حياته بمختلف التغيرات الجوية التى لو تعرضنا لها لأودت بنا فى لحظات . ولو كشفت فى ارتياع صادق كيف أن هـذه الصراصير التى نراها تقتحم مكتباتنا وتدور حول مؤلفاتنا كأحب ماتكون للأدب والعلوم تظل دائبة فى سيرها و إن تقطعت من أرجلها اثنتان أو ثلاثة أو أربعة ... بينما نحن لووخزتنا إبرة فى اصبع القدم عجزنا عن كل حركة . لو تأملت فى هـذا كله لأدركت أى الجبابرة كانت تنازعنا البقاء منذ ظهورنا فى الوجود .

لعمرى كم أضحك الإنسان الأول لداته القــدامى من الزواحف وذوات الأربع وهو يحاول بينهما لأول مرة الارتكاز على قائمتيه الخلفيتين ويجرب أن يستقيم واقفا وأن يخطو غير مستعين بجذع أو غصن شجرة .

والآن ماذا كان منه وماذا كان منهم ؟ . . أما هم فقــد تقلص معظمهم وانقرض ولم يبق منهم سوى عظام تفضلنا عليها بركن فى متاحفنا فى الغرفة ! و ب للاستدلال بهـا فى التاريخ الطبيعى. وغير هذه لكيما يعيش من ارتضى فى ذلة وخنوع أن يهبط إلى خدمتنا فيحمل أثقالنا أو يجر عرباتنا التى تعجز عن جرها سواعدنا الواهنة ... وغيرها فى مقابل أن نمنحها البقاء ينزل لنا عن بيضه ولبنه وصوفه بل ولحمه وجلده أيضا . . وغير هذه وتلك مخلوقات نأت عن طريق الانسان وعاشت على هامش الكون فى وهاد الصحراء أو ظلمات الغاب حيث سمحنا لهـا أن ترعى العشب والكلأ لتحافظ على جنسها ، وماذلك إلا لأنا لسنا بعد فى حاجة إلى ما تشغله من الأرض ولا يتسع وقتنا لإزاحتها .

و بالاختصار فإنه خلال أربعة آلاف قرن من السنين — وهو مايساوى ثانية فى تقدير الخلود — جعل الجنس البشرى نفسه الحاكم غير المنازع على كل شبر من الأرض وها هو الآن يكافح مجدا ليخضع لمشيئته الهواء والمـاء و يدخلهما فى دائرة نفوذه . وهذا كله — إذا كان يعجبك — ليس إلا عمل بضعة مئات من الملايين ميزهم الله على الحيوان بالهبة المباركة التى هى العقل . . .

وحتى فى هذا أرانى مبالغا .

فالعقل الجبار الذى قادنا إلى كل هــذا المجد والسؤدد على سائر المخلوقات لم يمنحه الله جزافا لكل البشر . و إنما خص به بدرة منا ، كانوا هم القادة وكان من عداهم — ولايهمنى بأى غضب واحتجاج يعارض كلامى — أتبــاع ولا شىء غير أتباع . و إنك لتجد أكثر من رجل واحد يحمــل المشعل ويضىء الطريق أمام عشرات الألوف من الهائمين فى بيداء البحث .

أما أن يمضى السبيل بالبشرية إلى مالا نهاية له فذلك علمه عند ربى ، و إن تكن الأدلة بينــة على أن الانسانية ستظل ماضية فى موكبها لاتنى ولا تتقاعس ، مالم تزح عن طريقها إزاحة بفعل القسوة والضغينة والبغضاء المتوارثة فى صــدر الانسان لأخيه الانسان . هــذه الكراهية المشئوم التى تسوقه للتنكيل ببنى جنسه تنكيلا لا يرضاه لبقرته أو كلبــه أو حتى شجرته »

وكأنى بهذا المؤرخ لو وضع كتابه سنة ١٩٣٩ بدل أن يضعه سنة ١٩٣٣ لتساءل : لم هذه الحرب الضروس التى تفتك بالبشر ، ولم هذه الوسائل الكبرى تهدم وتهلك حتى لتغطى ظهر الأرض وتملأ قاع البحر بأجسام الضحايا ؟ ... وما لهذا الشواظ النارى يلتهم الأبرياء من المدنيين بعد أن يأتى على التعساء المحاربين ؟ وما تلك القنابل الحارقة والمتفجرة تدك المدن وتحق البيوت على رءوس ساكنيها الآمنين ؟ . وفيم الطمع والجشع والكذب والبهتان ؟ ... عجيب أن تتحجر القلوب وتضيق الصدور فلا تتسع بعد للرحمة والبر والقناعة ! ترى أين ذهبت الأمانى الطيبة والعواطف السامية وكل ما نعتز به بكلمة الانسانية ؟ ...

ويمضى فان لون فى حديثه الذى قطعت فيقول : "هذه الأرض التى تأوينا ، كم هى عطوفة علينا رءوفة بنا ، إنها تنبت طعاما كافيا لكل أحد ، ولديها المحاجر واللبن والأشجار التى تساعد كل فرد على بناء مسكنه ، وفوق أديمها تمرح الشاة فنجز صوفها و يزرع الكتان والقطن فنكتسى بما يرد غائلة البرد ولفحة الحر ، وهذه أشجار التوت تعيش على ورقها دودة القز فتعطينا الحرير فلا ينقصنا من كسائنا شىء . لا ، بل لا يذهب إلى قبره إنسان إلا وقد تغطى باللفائف من قمة الرأس إلى أخمص القدم . على أنا لسنا بررة بأمنا الحدوب الرءوم ، بل إنه ليس على ظهرها من هو طاع أشر كهذا الانسان ، إنه المخلوق الوحيد الذى يقسو على بنى جنسه ويتربص بأخيه ليقضى عليه و يورده موارد التلف ، فالكلب لا يأكل الكلب ولا النمر يغتال النمر ، بل إن الضبع على حقارته وخسته يعيش فى سلام مع بنى جلدته ، أما الإنسان فإنه يكره الإنسان و يقتله ... وفى هذا العصر الذى نعيش فيه نجد غاية الأمة الواحدة ومثلها الأعلى أن تتربص بجارتها تنزل بها الهلاك و بودها لو تقضى عليها بالفناء .

وكأنما نسى العالم أن المادة الأولى من قانون الخليقة تحتم أن تتحد وتتحاب جماعات النوع الواحد لتحافظ على نوعها بين سائر الأجناس ، لا أن يغرقوا فى الخصومة ويتنافسوا فى البطش بعضهم ببعض ، حتى لأخشى أن تكون هذه بداية النهاية للجنس البشرى . فإن منافسيه له بالمرصاد . و إذا كان الانسان قد عجز أو لم يعد راغبا فى حمل اللواء وأعباء السيادة على وجه البسيطة فهناك آلاف من المخلوقات تتهادى على مر القرون إلى مكانه لتتبوأه . ومن يدرى ؟ لعل هذه الحيوانات التى نراها الآن من حولنا ترمقنا فى صبر وأناة وتمتثل لأوامرنا ، سوف تحتل يوما مقاعدنا وعندها تسيطر على مقدرات العالم هذه القطط أو الكلاب أو الفيلة أو غيرها من الحشرات الممتازة (وكم هى الآن متحفزة تنتظر الفرصة !) .

فهل للبشر أن يبحثوا عن وسيلة للهداية تقودهم إلى شاطئ الأمان فى هذا الخضم العجاج المتلاطم الأمواج قبل أن تغرقهم سيئاتهم فى لجته .

إن غرضى مما قدمت هو التنبيه إلى جهالة الماضى وتخبط السلف وهداية هذا الجيل إلى نعمة الانسانية الحقة . وقد تمضى بنا فى بطء ونصب وآلام مئات السنين قبل أن تقودنا التربية الكاملة إلى طريق الخلاص . وهذا الطريق سيمشى بنا إلى الشعور بأنا جميعا إخوة على هذا الكوكب السيار ، وما إن تثبت هذه العقيدة السامية فى أذهاننا وندرك أن الأرض لنا وحدنا فى الخير والشر ، وأنه لامكان لنا سواها ندب فيه ونسعى . وما إن نفهم جيدا أن أمنا الأرض الحنون تقتضى من بنيها أن يعيشوا فى رضابها إخوة متحابين وأن مثلنا عليها كمثل المسافرين فى قطار أو على ظهر باخرة تمضى بنا إلى حيث لا نعلم — أقول ما إن تستقر فى أفئدتنا هذه الحقيقة حتى نكون قد خطونا الخطوة الأولى والأهم نحو الحلول الموفقة فى مشكلاتنا المعقدة التى هى الأصل فى كل متاعبنا .

نحن فى سفرنا العابر على ظهر هذا الكوكب ينبغى أن نحس احساسا مشتركا ، فما يؤلم أحدنا يؤلمنا جميعا ، وما يطربه يطربنا معه .

سمنى حالما أو مجنونا أو هائما فى بيداء الخيال أو ماشئت من الأسماء . . أو استدع رجال الشرطة أو عربة الإسعاف لتحملنى قسرا إلى بعيد حيث لا تصل إلى سمعك هذه الهرطقة غير المستحبة . لكن انتبه إلى هذه الكلمات واستذكرها فى ذلك اليوم القمطرير المشؤوم ، يوم يرغم بنو الإنسان على جمع لعباتهم وتسليم مفاتيح سعادتهم إلى وارث أجدى حظا وأكثر استحقاقا ، ان الأمل الوحيد لبقاء جنسنا البشرى يتلخص فى هذه الكلمات : " إنما نحن على هذا الكوكب الواحد مسافرون عابرون ، ونحن جميعا متضامنون فى توفير السعادة واليسر للعالم الذى نعيش فيه "

مصطفى صبحى
مدرس الآداب بمدرسة الزيتون الأميرية

ظلم الحمامة فى الدنيا وإن حسبت
فى الصالحات كظلم الصقر والبازى

المعرى